

رحيل

انسحب المعلم الإيطالي أول من أمس، نهائياً. بعدما سبقه انسحاب من صناعة الأفلام عام 2011. لأنه فقد القدرة على «التأقلم مع عالم سينما اليوم». هكذا اختتم رحلة تضمنت حوالي 40 فيلماً روائياً ووثائقياً عكست التأثيرات الاجتماعية في أعمال عمالقة السينما الإيطالية ما بعد الحرب مثل فيتوريو دي سیکا وفيدريكو فيليني وروبرتو روسيليني وأنطونيو فينوني. مطعماً أسئلته حول السياسة والإنسانية والسينما بالكوميديا التي راضقت معظمها

إيتوري سكولا... سينمائي العزلة والهامش والاختلاف

عبدالرحمن جاسم

لم يبرع أحد في تجسيد إيطاليا على مدى نصف قرن بدءاً من الحقبة الفاشية حتى بداية القرن الحادي والعشرين، كما فعل هو. إيتوري سكولا (1931 - 2016) «المايسترو» الذي رسمت أفلامه «بورترية» لإيطاليا القرن العشرين، والتفاوت الطبقي، والمعاناة والندم، وأوهام اليسار الذي انتمى إليه، انسحب مساء الثلاثاء «بعدما تعب قلبه من الخفقان» وفق ما قالت زوجته وابنتاه لإحدى الصحف المحلية. قبل ذلك، وتحديداً في عام 2011، انسحب «الرفيق» من صناعة الأفلام لأنه «يعجز عن التأقلم مع عالم سينما اليوم، كما كان يفعل في السابق بحب وفرح وخفة. هناك منطق للإنتاج والتوزيع لا يشبهني البتة». معلم السينما الإيطالية منذ الستينات حتى نهاية القرن العشرين، يعتبر من الأوائل الذي صنفوا ضمن فئة «الفتيان السحرة» في الفن السابع الإيطالي. عكست أفلامه التأثيرات الاجتماعية في أعمال عمالقة السينما الإيطالية ما بعد الحرب مثل فيتوريو دي سیکا، وفيدريكو فيليني وروبرتو روسيليني وأنطونيو فينوني، فطعم أسئلته حول السياسة والإنسانية والسينما بالكوميديا التي رافقت معظم أفلامه. «لقد أحببنا بعضنا كثيراً» (1974 - «سيزار» أفضل فيلم أجنبي عام 1977) مع نينو مانفريدي، ستيفانيا سانديريلي، فيتوريو غاسمان، وستيفانو فلوريس روي ثلاثين عاماً في تاريخ إيطاليا (1945 - 1975)، وبعد بحثاً في التيارات الاجتماعية التي أنتجت الحرب، ووجه من خلاله تحية إلى السينما الإيطالية المشغولة بتحوليات ما بعد الحرب العالمية الثانية. «قبح، قدر وسيء» (جائزة أفضل مخرج في «مهرجان كان» في عام 1976) كوميدياً فجة تدور في إحدى عشوائيات روما السبعينات المهدة بالتوحش العمراني الزاحف. أما سكان الحي، فيستزرقون من السرقة والدعارة وواقعون تحت رحمة الأزعر المستبد والأعمى الذي يجسده نينو مانفريدي أيضاً.



أما «يوم استثنائي» (1977) مع الرائعين صوفيا لورين ومارشيللو ماسترويانى، فيذهب بنا إلى ذروة الفاشية في إيطاليا. على مدى نصف قرن، كتب سكولا وأخرج أكثر من 40 فيلماً روائياً ووثائقياً، أي بمعدل فيلم كل عام أخرجاً، فيما كتب سيناريو لأكثر من 90 فيلماً آخر. ابن الطبيب المولود في 10 أيار (مايو) 1931 في قرية تريفيكو في الجنوب الإيطالي، درس المحاماة بداية، ثم اختار التفرغ كلياً لعالم السينما. يمكن فقط النظر إلى فيلمه «يوم استثنائي» (1977) - «جائزة الغولدن غلوب» كأفضل فيلم أجنبي كي نفهم ماذا تعني السينما بالنسبة للرجل: أنتونييتا (صوفيا لورين) ربة منزل بسيطة وأم لستة أطفال تعيش في إيطاليا عام 1938 إبان حكم الفاشيين، تجلس في منزلها في انتظار عودة زوجها - المنتمي للحزب الفاشستي - من احتفال في مناسبة زيارة الزعيم النازي أدولف هتلر إلى إيطاليا. لا تعرف أنتونييتا كثيراً عن السياسة. على جانب آخر هي تهتم بجارها في السكن غابرييلي (مارشيللو ماسترويانى) مذيع الراديو الذي طرد من عمله لعدائه للفاشية. تحاول

أنتونييتا إغراء غابرييلي وإقامة علاقة معه لسامها من حياتها مع زوج بخونها ولا يحبها؛ لتكتشف أنه مثلي الجنس. هذا الاكتشاف لا يمنع الاثنين من التقرب من بعضهما، وحتى إقامة علاقة جنسية. يختتم الفيلم على عادة أفلام سكولا - بنهاية هي الأكثر واقعية: أنتونييتا تعود إلى المنزل وتبدأ بقراءة كتاب أعطاه

رسمت أفلامه «بورترية» لإيطاليا القرن العشرين، والتفاوت الطبقي، وأوهام اليسار الذي انتمى إليه

إياه غابرييلي («الفرسان الثلاثة» لإلكسندر دوما)، البوليس الإيطالي يلقي القبض على غابرييلي ليلقى به في السجن، بينما يعود زوج أنتونييتا إلى المنزل كي يجنب طفلاً سابعاً منها. لم تكن أنتونييتا في الفيلم إلا إيطاليا بحد ذاتها (أو الشعب الإيطالي)، فيما غابرييلي هو «اليسار» الإيطالي الذي يحاول «توعية» الشعب، ولو أنه بدا غريباً عنه في لحظة ما، أو غير مقبول

في إطار آخر. ويأتي الزوج بمثابة الدولة والنظام «القومي» الذي يطوع الشعب لما يريد، ويحصل على غاياته مهما كان «رديئاً» في كل شيء. الثيمة نفسها تتكرر في فيلمه «قبح، قدر وسيء» الذي يقدم صورة لعائلة «إجرامية» بسيطة، تعيش في منزل واحد. إنه منزل ديكتاتوري يحكم فيه «قائد» واحد، ومهما ازداد الدخل، فإن الكوخ الذي يسكنون به يبقى «كوخاً». لا يصرف جيا (نينو مانفريدي) أمواله إلا كما يجب، يحرم أطفاله كل شيء، ويغدها على عشيقته. تحاول زوجة جيا التحضير لانقلاب عليه، لكنها تفشل، فيقرر جيا أن يحرق المنزل، لكن في الختام: يعود كل شيء إلى مكانه الطبيعي، وبالتأكيد من دون أن يشعر أحد بالرضى عما حصل. يعود جيا لقيادة المنزل والعائلة، وتسكن زوجته وعشيقته تحت سقف واحد مع العائلة بأجمعها.

هي صورة إيطاليا التي يحكمها «ديكتاتور» (وليس بالضرورة أن يكون موسوليني فقط) الذي يدمر كل شيء، ويفعل كل شيء، وفي النهاية مهما حصلت انقلابات وحكومات، تعود الأمور إلى ما كانت عليه. رؤية سكولا الذي انتمى إلى الحزب الشيوعي الإيطالي، انصبت أساساً جراء كونه قادماً من الجنوب الإيطالي الأكثر فقراً. ورغم أن كثيراً من أفلامه كانت تحدث في روما، إلا أن روح التمرد والثورة كانت ملازمة لأرائه وأفكاره السياسية. ولا ريب أن أكثر أفلامه اقتراباً من فكرته تلك كان «لقد أحببنا بعضنا كثيراً» (1974). الجائزة الذهبية في «مهرجان موسكو السينمائي الدولي - 9». يتناول الفيلم علاقة بين ثلاثة أصدقاء: جيانى، أنطونيو ونيكولا. يحارب الثلاثة النظام الفاشي في إيطاليا آنذاك حتى سقوطه، بعد ذلك تدور الحياة بهم، يلتقي الأصدقاء بعد تلك المرحلة بسنين طوال، متحدثين عما يمررون به فيتناول أنطونيو حياته - حيث يعمل في مجال البناء - بهدأة شديدة، مؤكداً أنه لا يندم على شيء، فهو تزوج حب حياته، وظل محافظاً على مبادئه وإن لم يحقق «ثروة» من أي نوع. جيانى الذي أصبح يعمل في القضاء، يعيش في روما وحيداً

تحية

إلى فيليني

آخر أفلام سكولا كان تحية إلى معلم آخر هو فيدريكو فيليني في وثائقي بعنوان «كم غريب أن تدعى فيدريكو» (2013) فيما أنجزت ابنتاه باولا وسيلفيا وثائقياً عن والدهما عام 2015 بعنوان «بالضحك والتكثيت».

بعدما قضت زوجته؛ أما نيكولا وهو محور القصة، فقد كان الأذى بين الثلاثة. ورغم أنه حاول أن يحقق ثروة من خلال طرق عدة، إلا أنه لم يستطع نهائياً ذلك، فتحول إلى الكتابة مقابل «المال»، من يدفع أكثر، يكتب له أكثر. من يشاهد الفيلم يمكنه بسهولة بالغة أن يلاحظ أن إيتوري المفكر والمثقف، كان يتحدث دائماً من خلال شخصية أنطونيو، صاحبة المبادئ والأفكار التي لم تتنازل عنها أبداً، وحتى حينما نشاهد نيكولا يحاول ضربه، يبقى مصمماً على ما يقوله. كان تناول سكولا لتلك الشخصيات التي أفرزتها نهاية الحرب في المجتمع الإيطالي دقيقاً لدرجة أنه يمكن تطبيقه على أي مجتمعات خارجة من حروب طاحنة: المثقف القابل للبيع والشراء، التائه الذي يعمل داخل النظام الذي يقبل بأي شيء يفرض عليه، والمناضل القديم الذي يدفع ثمن مبادئه فيبقى - وإن كان سعيداً - من دون مكاسب مادي. في مقابلة معه نشرت في صحيفة «لو موندي»، قال سكولا: «صنع الأفلام ذاتها تقريباً. لطالما انشغلت بنظام العزلة والتفاوت الطبقي. أنطلق دوماً من فكرة وليس فرداً لأحولها إلى كوميديا فجة لأنني أرى أنها طريقة نبيلة وتراجيدية في عكس مشكلاتنا المجتمع المعاصر».

«يوم استثنائي» آخر



ماسترويانى وصوفيا لورين في «يوم استثنائي» (1977)

هما أنتونييتا (صوفيا لورين) وغابرييلي (ماسترويانى). تتجول الكاميرا في المنزل الإيطالي المسيوغي فاشية الأمر الواقع، فيصير المنزل هو روما نفسها، المدانة باتهامات لا أدلة حاسمة عليها، من دون أن يتخذ موقفاً نهائياً في مسألة براءة الإيطاليين. «يوم استثنائي»، هو مجرد رسالة أخرى، من رسائل غرامشي، التي حاول فيها مراراً ربط العلاقة التكاملية بين

النظام الرأسمالي والفاشية والسلطوية. وانسحبت قراءة «مايسترو السينما الإيطالية» على معظم أعماله، حتى أن الكثير من النقاد يكادون يوافقون أنه الوحيد «الذي رأى». ومعنى ذلك أنه الوحيد الذي نجح في تفكيك المسارات التي يمشي عليها المجتمع الإيطالي في العهد الرأسمالي. إيتوري سكولا من الجنوب، وهذا يعني كثيراً في إيطاليا المعاصرة. الرجل الذي ولد في تريفيكو، قرب نابولي، حمل مع مجاليه آلام الجنوب التي تصح لقياس الصراع بين عالمين: واحد يلهث خلف الرأسمالية، وآخر صار يجعل العالم الأول لاهناً خلفه. حتى عندما صار سكولا وزيراً للثقافة في «حكومة الظل» الشيوعية عام 1989، لم يكن متحمساً للتغيير من الخارج، بل كان ساعياً دائماً إلى تغيير راديكالي في بنية المجتمع. أمر بدأه في السينما قبل سنوات طويلة.

الرجل الذي طرح أسئلة ملحة في أوقات مبكرة - لكنها أسئلة لم تجد أجوبة بعد، رغم انقضاء عقود على الفاشية - أعلن أول من أمس آخر انسحاباته. هو انسحب قبل ذلك مرغماً من السينما، معلناً أنه يترك المساحة للشباب لمواجهة العالم المتوحش. تعب إيتوري سكولا، أصيب بالخيبات. لكنه وظف هذه الخيبات لخدمة عالم كان يراه أكثر توقفاً للإنسانية. وما زال «يوم استثنائي» شريطاً صالحاً للمشاهدة اليوم، كما لو أن الفوهرر يزور عاصمة مسحوقة، بينما تتركز أوزار السلطوية في منازل المدينة وشوارعها، حيث تدفع المرأة والمثليون وأصحاب الحقوق المهذورة الآخرون أثماناً باهظة للنظام. ربما نحتاج إلى مشاهدة الشريط، في عالمنا العربي، اليوم، أكثر من أي وقت مضى.

يوسف، اصفر

كان إيتوري سكولا «مخرجاً عضوياً» على القياس الغرامشي، لا مخرجاً عادياً. وعلى عكس كثيرين من صناع السينما الإيطالية الكبار من أصحاب «الحساسية اليسارية»، لم يهاجر بأفلامه إلى أميركا، كبريتولوتشي وكوبولا، أو تورناتوري، وإن كان ذلك لا يعيب كثيراً المخرجين الذين حملوا أنفسهم على تلك الهجرة. لكن سكولا من طينة بازوليني في السياسة، وإن كان في السينما مزيجاً فريداً من مجموعة مخرجين إيطاليين لا يمكن الحديث عن واحد منهم من دون الحديث عن الآخر، رغم الاعتراف بوجود سحنة استثنائية تميز أعمال كل واحد منهم. وكما في فرنسا، في إيطاليا، الحديث عن «موجة جديدة» في السينما، قد يقود في نهايته إلى البحث عن هوية فلسفية للمخرجين، فإن كان غوادري (مثلاً) نسوياً كسيمون دو بوفوار، أو برتولوتشي فوكويماً يقيم وزناً لتأثير السلطة والذات والمعرفة، فإن سكولا كان غرامشياً قطعاً، وليس شريطه «يوم استثنائي»، إلا تجسيدا سينمائياً فائتاً لرسائل أنطونيو غرامشي من سجنه في تورينو شمال إيطاليا. في السينما، لا يجب سكولا بالهجرة. ربما أشهر أفلامه، مع مارشيللو ماسترويانى وصوفيا لورين هو بالفعل «يوم استثنائي» (1977) الذي يتحدث فيه عن زيارة الزعيم النازي أدولف هتلر إلى روما. صحيح أنه حرر الكاميرا من الضوابط التقليدية، واستعان بمشاهد حقيقية من الزيارة، حيث يبدو نضوج الفاشية في روما كاملاً ومؤملاً. لكن معظم لقطات الفيلم أخذت على طريقة «اللظة الواحدة» (one shot). تدور أحداث الفيلم بين شخصين